رأى فى :

« الاستعراب والرابطة الإسلامية »

للأستاذ محمد رفعت
رئيس قسم البحوث التاريخية والجغرافية

أيهما كان أسبق إلى الدخول فى أوساط الشعوب والمجتمعات التى تاخمت شبه جزيرة العرب وإليها كانت بعض قبائل شبه الجزيرة تشد رحالها التماسا للرزق وسعيا وراء مصادر الماء والعشب ؟ ظاهر أن حركة الاستعراب كانت أسرع وأسبق إذ لابد أن يكون هناك تقارب اجتماعى واقتصادى قبل أن تتسرب رسالة الدين الحنيف الجديد إلى المجتمعات المتاخمة . وظاهر أيضاً أنه قد قامت قبل الرسالة المحمدية علاقات وطيدة بين القبائل فى قلب شبه الجزيرة وتلك التى كانت تسكن حـول الكوفة فى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة ، وهم بنو تغلب ، وفى الشمال الغربى منها فى سوريا وهم الغساسنة . فكان الجانبان يتبادلان السلع وتقوم بينهما المعاملات الاقتصادية، كما تربط بينهما وشائج من القربى والتزاوج .

وليس من شك أيضاً فى أن ذيوع اللغة العربية كأداة للتفاهم بين شعوب هذه المنطقة التى امتدت حدودها من الخليج العربى شرقا إلى شمال أفريقيا وساحل المحيط الأطلنطى غربا إنما يرجع إلى ظهور الإسلام كقوة دينية واجتماعية دافعة — دفعت العرب والمستعربين إلى القيام بتلك الفتوح التاريخية التى أذهلت العالم بسرعتها وقوضت أمامها أركان دولتين كانتا فى ذلك الوقت أقوى دول العالم كله — الأولى دولة الفرس فى الشرق والثانية الدولة الرومانية الشرقية أو البيزنطية غربا فى مصر وغربى آسيا .

وقد بدأ تحول الكثرة العظمى من تلك الشعوب إلى الإسلام منذ بدأت الفتوح فى القرن السابع الميلادى ، وذلك لفرط ماعاناه الناس فى الماضى من خلافات ومجادلات واضطهادات بسبب تباين مذاهبهم الدينية المسيحية . ولاننسى «أن المغلوب — كما يقــول ابن خلدون — مولع أبداً بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده »[١] .

ولما مكن الله للمسلمين وبدأت الفتوح سارت الحركتان جنبا إلى جنب— حركة استعراب الشعوب وحركة الرابطة الإسلامية . أما حركة الاستعراب فوقفت قرب حدود الأطلنطى غربا وحدود فارس والهند شرقا ، بينما شق الإسلام طريقه إلى أفغانستان ووسط آسيا وجنوبها وشرقها وإلى بلاد الأندلس وقرنى فرنسا غرباً . وما لبثت لغة القرآن والفاتحين أن تفوقت تدريجيا على غيرها من اللغات واللهجات المحلية فى تلك المنطقة حتى أصبحت اللغة العربية بعد نحو قرن من الزمان — زيادة على كونها اللغة الرسمية — لغة التخاطب بين السكان جميعا بما فى ذلك الاقليات الدينيةمسيحيين كانوا أويهوداً . وهكذا أذاب الإسلام والعروبة جميع الفروق والتقاليد المحلية وأوجدا حياة اجتماعية جديدة ووحدة بين الشعوب غير معهودة من قبل — وحدة تمثلها الخلافتان الأموية والعباسية . ولم تستطع واحدة من الحضارات القديمة قبطية كانت أو اغريقية أو رومانية أوفارسية أن تقف وتصمد أمام قوة العروبة والحضارة العربيــة .

هذا وإذا كانت الشعوب المستعربة تختلف فيما بينها من حيث السلالة ولون البشرة وشكل الرأس فانهم مختلفون أيضاً من حيث العقيدة الدينية فنهم المسلم والمسيحى وأصحاب المذاهب المتفرعة عنهما . هذا فضلا عن الفروق المحلية واختلاف المستويات الاجتماعية والثقافية التى بلغتها الشعوب

---

(١) النحلة هى المذهب والديانة . انظر مقدمة ابن خلدون ص ١٤٠ (المكتبة التجارية بالقاهرة) .

العربية ، كل بلاد وفق تقاليدها وتطور تاريخها وما خلفته الأجيال والأحداث فيها من نظم ومؤثرات مادية ومعنوية .

ومع ذلك ورغم هذه الفروق جميعها نرى أن العرب يشتركون جميعا فى أمرين أساسيين ، فهم أولا يجمع بينهم لسان عربى قد تختلف لهجاته المحلية ولكن العربية الفصحى كانت لهم دواما ولاتزال لسانا مبينا يستهوى أفئدتهم جميعا . بها يتعبدون فى مساجدهم وكنائسهم ومعابدهم وبابتهالاتها تناغى الأمهات أطفالهن وهم رضع وبها أيضاً تتحرك شفاههم وتتلى عليهم الصلوات إذا ما حم القضاء وانقضى الأجل !

أما الأمر الثانى فهو أنهم جميعا شركاء فى تراث عربى مجيد ويؤلف بين قلوبهم إيمان وشعور واحد لعروبتهم بمستقبل مشرق يعيد للعرب تالد سؤددهم ومجدهم . وليس بغريب أن يكون عامل اللغة والثقافة من أهم الأسس التى يرتكز عليها بنيان الأمة العربية . وإنك لتجد العراق مثلا وهو الواقع فى أقصى حدود العالم العربى من جهة الشرق أوفى وأقرب مودة إلى الجزائر أو المغرب مثلا وهما الواقعتان فى أقصى الغرب منه إلى جارته إيران رغم ما يربطه بها من جوار وتقارب فى المذهب الدينى وفى التطور التاريخى. وما ذلك إلا بفضل مالرابطة العروبة من القوة والأثر .

أما العامل الدينى الذى يعده البعض أساساً لتآلف الأمة العربية وتماسكها فليس من شك فى أنه من أهم مظاهر الوحدة بين الشعوب العربية . غير أن أهمية هذا العامل لم تعد كما كانت عليه الحال منذ قرن أو أكثر . أما قول بعض المستشرقين الأجانب بأن « العرب هم أولئك الذين يتخذون من رسالة سيدنا محمد حقيقة يرتكز عليها تاريخهم والذين هم إلى جانب ذلك يقدرون اللسان العربى ويعتزون به وبآثاره الأدبية والعلمية ويعتبرون أنفسهم شركاء فى كل هذا »[١] ففيه شيء كثير من المبالغة ؛ ذلك لأن رسالة سيدنا محمد

---

(١) Bernard Lewis : « The Arabs in History » (London 1957)

كانت عامة كرسالة السيد المسيح . والذكر الحكيم يقول : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . ثم إن هناك بالبلاد العربية أقليات دينية كالأقباط المسيحيين فى مصر والمسيحيين فى سوريا . كما أن بها أقليات مسلمة غير عربية كالأكراد فى العراق مثلا والبربر فى شمال أفريقيا والزنوج فى جنوب السودان . وتقضى الروح القومية التى سادت بين الشعوب منذ القرن التاسع عشر بأن يكون الوطن الواحد لجميع مواطنيه على اختلاف نحلهم وأصولهم لا لطائفة واحدة من المواطنين حتى ولو كانت لها الأكثرية المطلقة ! صحيح أن الإسلام قد طبع الشعوب العربية بطابع إسلامى نراه متجليا فى عادات القوم وأساليب حياتهم وفى مظاهر مدنهم ومعظم شئونهم الاجتماعية حتى فى نظمهم السياسية نرى الدساتير السياسية فى معظم البلاد العربية قد نصت على أن الإسلام دين الدولة . ولكننا نرى إلى جانب هذا أن حرية الاعتقاد الدينى مكفولة للجميع فى حدود القانون .

وليس فى ذلك ما يدعو إلى الغرابة إذا عرفنا أن الدولة العربية كانت فى أزهى عصورها تأخذ من حضارات الإغريق والفرس والرومان وتفيض على الغرب من حضارتها العربية الخالصة على أيدى عدد من علمائها من بينهم مسيحيون ويهود اتسموا جميعا بالطابع العربى . والذين يؤثرون صفة الإسلامية على العربية إنما يستندون إلى أن عدداً كبيراً من دعاة هذه الحضارة كانوا من أصل غير عربى . وهذه حقيقة لامراء فيها . فقد تأثرت تلك الحضارة بعناصر غير عربية منها الفارسية فى شئون الفقه الإسلامى واللغة والأدب والدواوين ، ومنها الهندية فى علوم الحكمة والحساب ، ومنها اليونانية فى الفلسفة والسياسة والطب والجغرافيا . ومنها الرومانية أو البيزنطية فى شئون مد الطرق والجسور وإقامة الأقواس والقباب . أما قصر صفة الإسلامية ففيه مجافاة لسياسة التسامح الدينى التى انتهجها العرب عند بدء فتوحهم وترك الذميين يتمتعون بحريتهم الدينية ماداموا يؤدون الضريبة المقررة مقابل إعفائهم من الخدمة العسكرية . ولم تعمد الحكومات إلى سياسة التشديد على المخالفين لهم

فى الدين إلا بعد أن ضعفت الخلافة العباسية ودخلت الطوائف التى أسلمت متأخرة كالأتراك السلاجقة وغيرهم فى مجالات الحكم. وعلى ذلك تكون الصفة الغالبة لتلك الحضارة وأسلوبها وأداة انتشارها هى العربية بلاريب.

على أننا نرى الحركتين - «العروبة» و «الإسلام» - تسيران فى طريقهما شبه متلازمتين متوازيتين. فكلتاهما تعملان على نصرة القضية العربية والإشادة بالتراث العربى. وتحرير الشعوب الشرقية من ربقة الحكم الأجنبى. وإذا كان القائلون بالحركة الإسلامية يريدون أن يؤسسوا نظمهم ومعاملاتهم مسترشدين بهدى القرآن الكريم وتعاليمه، فان العرب على اختلاف أديانهم يمجدون القرآن الكريم ويعتبرونه مثلا أعلى للبيان العربى، ويدركون تماما أنه لولا القرآن ما بقيت اللغة العربية على نقائها وحيويتها ولتغلبت عليها اللهجات المحلية كما تغلبت على الإغريقية واللاتينية من قبل. وإذا ما آثر أنصار فكرة الجامعــة الإسلامية أن يقولوا بالحضارة الإسلامية وأشادوا بما أدته إلى الإنسانية من خدمات فان العرب هم أيضاً جد فخورين بهذه الحضارة وبجميع العناصر التى تضافرت وأعلت شأنها بين الأمم لافرق فى ذلك بين عربى وأعجمى وبين مسلم ومسيحى. وأن العرب على اختلاف نحلهم ليحلون فى المكانة العليا أدب الجاهلية الذى ظهر فى بلاد العرب وازدهر قبل رسالة الإسلام. وقد أعجب العرب بشعر الأخطل المسيحى وبشار بن برد الفارسى. كما أعجبوا بمؤلفات حنين بن اسحاق المسيحى وموسى بن ميمون اليهودى فى عهد العباسيين.

أما ما يؤخذ على فكرة الرابطة الإسلامية فظاهر أن الفكرة تميل إلى إنشاء دولة تستظل براية الإسلام وتجمع بين المسلمين أينما كانوا، ويكون القرآن الكريم وتعاليم الإسلام دستوراً للدولة. ومع تعذر الجمع بين المسلمين فى كافة أنحاء العالم فى دولة أونظام سياسى واحد أيا كان نوعه، فان العرب مع تمسكهم بمذاهبهم الدينية يعملون على إقامة وحدة أو اتحاد لايكون الدين

أساسا له البتة . بل يكون اتحادا يحترم الأديان جميعا ويأخذ عن حضارة الغرب الحديثة أحسن ثمراتها فى العلم والاختراع والاجتماع ونظم الحكم. وقد انتهى العرب إلى هذا الرأى منذ أمد بعيد حين بدأت تقيم دولها الحديثة فى أوائل القرن الماضى معتمدة فى إصلاحاتها ونظمها على أسس لاتجافى الشرع الشريف وآخذة من الغرب فى الوقت نفسه على أيدى خبراء غربيين. وقد مضى الوقت الذى كان الناس فيه يجادلون ويفلسفون حول تعليم البنت وفتح المصارف المالية ولبس القبعات وإصدار التشريعات الحديثة . فهذه وأمثالها شئون قد فرغ معظم الشعوب من دراستها وانتهوا منها إلى نتائج نشهد آثارها اليوم فيما نراه من معالم النهضة الحديثة فى مختلف البلاد العربية .

ولم يسىء إلى فكرة « العروبة » أكثر من جهود السلطان عبد الحميد الثانى ورجال الاتحاد والترقى من بعده الذين استغلوا فكرة الرابطة الإسلامية والدعوة إلى الجهاد الدينى إبان الحرب العالمية الأولى ضد بريطانيا وحلفائها، على حين كانت تركيا نفسها متحالفة مع دولتى وسط أوربا المسيحيتين — ألمانيا والنمسا . فقد كانت نتيجة هذه السياسة الخرقاء إغراق الفكرة العربية فى خضم الرابطةالإسلامية واضطرار نخبة من رجال العرب الأحرار وبخاصة غير المسلمين منهم إلى الهجرة من بلادهم إلى مواطن أخرى غريبة عليهم .

وأخيراً يجب أن نذكر أنه بعد أن ألغت الاختراعات الحديثة—أو كادت أن تلغى — المسافات الزمنية والمكانية . وبعد أن تطورت أسباب الاتصال بين الناس جميعا بعضهم وبعض فان عناصر الحضارة أصبحت مشتركة بين الجميع ، وأن الحضارة الحالية القائمة بيننا الآن لم تعد ملكا لغرب أو شرق أو تخص قوما دون آخرين . فما الحضارة الأوربية الحديثة فى حقيقة الأمر إلا تكملة ومزاج أو جماع للحضارات التى سبقتها . ولعل أقربها من حيث المرحلة الزمنية الحضارة العربية وحركة النهضة الأوربية .وكلما أخذت الشعوب وبخاصة النامية منها — بأسباب النهوض والرقى العلمى والتقنى والصناعى

قويت الفكرة القومية بل الإنسانية وعلا شأنها . ويبقى الدين بعد ذلك ملاذاً عاطفيا وروحيا للجماعات والأفراد يعمر قلوبهم ويوجه سلوكهم ويكون أمره فى النهاية لله تعالى

قال الشاعر المصرى على الجارم :

بنى العروبة إن الله يجمعنا ... فلا يفرقنا فى الأرض إنسان
لنا بها وطن نلوذ به ... إذا تناءت مسافات وأوطان
غدا الصليب هلالا فى توحدنا ... وجمّع القومَ إنجيل وقرآن
أواصر الدم والتاريخ تجمعنا ... وكلنا فى رحاب الشرق إخوان

معهد البحوث والدراسات العربية
عضو اتحاد الجامعات العربية